هل عجز المسلمون عن تطبيق شريعة الإسلام عبر تاريخهم؟

هل عجز المسلمون عن تطبيق شريعة الإسلام عبر تاريخهم ؟

قلتِ يا بنتي : " الذي لا نستطيع تطبيقه صح خلال ١٤٠٠ سنة يبقى حاجة غير قابلة للتطبيق ... حاجة مش عايزة ذكاوة " .

وسوف نحاول الإجابة عن تساؤلات : هل المسلمون عجزوا عن تطبيق شريعة الإسلام عبر تاريخهم ؟ ولم يقوموا ببناء حضارة ، وكانوا عالة على غيرهم من الأمم ؟

ماذا صنع الإسلام في العرب ؟

بدَّل الله تعالى من صحَّ إيمانه من العرب – وغيرهم – من بعد خوفهم أمنا، ومن بعد ضعفهم قوة حتى دانت لهم الدنيا .

﴿وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥] .

وبالإيمان والتمسك بشريعة الله تحوَّل العرب المؤمنون إلى إخوة متحابين بعد أن كانوا متناحرين ومتقاتلين فإذا بهم بنعمة الإيمان بالله يتحوَّلون إلى أخوة متحابين متعاونين .

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وبعد أن كان العربي ذا حميَّة جاهليَّة واندفاع وتهوُّر أنزل الله على المؤمنين منهم سكينة وألزمهم كلمة التقوى ، وثبَّتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب الكفار من الحميَّة .

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح : ٢٦] .

واستبدل الله تعالى المؤمنين العرب الأخوة الدينيَّة بالعصبيَّة الجاهليَّة ، وجعل كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوَّة الدين أثبت من أخوَّة النسب، فإن أخوَّة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوَّة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب. قال رسول ﷺ : " إيَّاكُم والظَّنَّ ، فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تَناجَشوا ولا تحاسَدوا ولا تباغَضوا ، ولا تدابَروا ، وَكونوا عِبادَ اللَّهِ إخوانًا " [متفق عليه] .

أما عن العصبيَّة الجاهليَّة ونصرة الأخ ظالماً ومظلوماً فقد صحح الإسلام مفهوم النُصْرة فجعلها للحق والعدل والدين ، أما العدوان فلا يكون إلا على الظالمين .

قال رسول الله : " انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مظلومًا ، قالوا: يا رسولَ اللهِ هذا ينصُرُه مظلومًا فكيف ينصُرُه ظالِمًا ؟ قال: " يكُفُّه عنِ الظُّلمِ " [صحيح البخاري] .

فنُصْرة الأخ تكون في الحق فقط فإن رأيته على باطل ضربت على يده ومنعته من التمادي في الباطل .

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وشدَّد الإسلام أشدَّ التحريم في حرمة النفس الإنسانية .

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

[المائدة:٣٢]

كما أسقط الإسلام ثارات الجاهلية ، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله .

قال النَّبِيَّ ﷺ فِي حَجَّة الْوَدَاعِ " يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلاَ أَيُّ يَوْمٍ أَحْرَمُ ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. قَالُوا: يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ. قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعَراضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذَا، وَلاَ مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ. أَلاَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هذَا أَبَداً. وَلِكِنْ سَيَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَيَرْضى بِهَا. أَلاَ وَكُلُّ دَمٍ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ. وَأَوَّلُ مَا أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحرِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ " [رواه أبو داود] .

وعدَّ النبي ﷺ سِبَاب المسلم فُسُوق وقتاله كفر فقال ﷺ " سِبابُ المسلِمِ فُسوقٌ ، وقتالُهُ كُفرٌ[متفق عليه] .

ونفى ﷺ الإسلام عمن حمل على المسلين السلاح فقال ﷺ " مَن حمل علَينا السِّلاحَ فليسَ منَّا " [متفق عليه] .

كذلك نهى النبي ﷺ عن السلب والنهب الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال ﷺ " مَن انتَهب نُهبةً فليس منَّا " [صحيح ابن حبان] .

كما جاء الإسلام ليضع القصاص في يد ولي الأمر لا لولي القتيل ، ولا قصاص إلا من القاتل .

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥] .

وبالنسبة للمرأة فقد رفع الإسلام شأنها وجعلها مساوية للرجل وجعل مقياس التفاضل بينهما هو التقوى والعمل الصالح وليس التفاضل على أساس النوع : ذكر وأنثى كما كان شائعاً في الجاهلية .

الإسلام وعمارة الأرض

أما بالنسبة للعمل وتعمير الكون فقد جعل الإسلام مهمة الإنسان المؤمن الإيمان بالله وتعمير الكون فالعمل الصالح النافع عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله.

لقد طهَّر الإسلام المؤمنين به من كل أدران الجاهلية وصبغهم صبغة الإسلام ومن أحسن من الله صبغة ؟ فجعل العلاقة بين المسلمين تقوم على الحب والتعاون والإيثار أما علاقة المسلم بالأمم الأخرى فتقوم على حسن الجوار ، والمحافظة على المعاهدات الدولية ، وإن جنحوا للسلام يجابوا إليه ، ولا يبدءون بالعدوان فالحرب في الإسلام تكون لرد العدوان وليس للاعتداء على الآمنين المسالمين . ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

فالحرب في الإسلام لرد العدوان وليس للابتداء به كما كان حال أهل الجاهلية الذين كان دستورهم :

وَمَن لا يَذُد عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّم وَمَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

فجاء الإسلام ليجعل العدوان فقط على الظالمين .

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

وهكذا جاءت أحكام الله دستوراً شاملاً لكل مناحي الحياة ذلك الدستور الإلهي العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بعكس قوانين الجاهلية الجائرة .

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠]

ولما كانت الدعوة الإسلامية حركة إصلاحية أعظم تنقذ البشرية جمعاء من الاستبداد والفقر والرذيلة والتأخر الحضاري ، وثورة على النظم الرجعية القديمة

التي تتنافى هي والإنسانية والحضارة . وكل ثورة إصلاحية لا بد أن تلقى حركات مضادة ، تبعا لسنة الحياة ، وتعبيراً عن الصراع بين القديم البالي ، والجديد الناهض ، وبين أنوار الحضارة وظلام الجاهلية الرجعية " (١)

ولأسباب دينيَّة ، واقتصاديَّة ، وسياسيَّة ، ونفسيَّة رفضت قريش معظمهم الإسلام وبذلوا غاية جهدهم في صرف صاحب الرسالة عن إتمام رسالته .

فلم يجد النبي بداً من الهجرة إلى المدينة ، وفي المدينة بدأ النبي في إنشاء حضارة الإسلام ، وإقامة المجتمع الإسلامي الرشيد الذي سيحمل رسالة الإسلام إلى جميع الآفاق فبدأ بعقد المؤاخاة بين الأنصار واليهود ، ثم وضع دستور المدينة الذي ينظم العلاقة بين المسلمين وبين يهود المدينة وكان أهم ما جاء فيها:

" إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ؛ وإن ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغُ –يهلك– إلا نفسه ، وأهل بيته وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ؛ وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ؛ وإن النصر للمظلوم " (٢)

وفي المدينة أصبح للإسلام نظام سياسي وحضاري إلى جانب أنه رسالة هداية ورشاد ، وكان أبرز ما حققه الإسلام في المدينة " محو البدوية الجاهلية ، وإقامة حضارة اجتماعية جديدة راقية ، تقوم على الحرية والإخاء والمساواة ، وتسمو بالإنسانية ، وتقضي على الجهل والفاقة ، وتدعم روح الجماعة ، وتقضي على الروح الانفصالية ، والإقليمية والفردية ، وتحقق الزمالة الإنسانية ، والمشاعر العالمية " (٣)

---

(1) د. علي حسني الخربوطلي " الحضارة الإسلامية " دار المعارف ص ٨

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، سيرة ابن هشام باب وموادعته ﷺ اليهود الذين كانوا بالمدينة.

(3) د. علي حسني الخربوطلي " الحضارة الإسلامية " مرجع سابق ص ١٢

وانتقلت زعامة العرب من قريش إلى المسلمين في المدينة وتأكد ذلك بفتح المسلمين مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، لكن على الرغم من أن المسلمين لم يرغموا أحداً على اعتناق الإسلام لأنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] ولكن بفضل تعاليم الإسلام السامية التي تأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام ، وتنهى عن الظلم والبغي ومنكر القول والعمل انتشر الإسلام ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠] .

دخل أبناء الأمم المفتوحة من عرب وعجم في دين الله أفواجاً لما رأوا من أن الإسلام دين متوازن .. كما أنه يسوي بين الناس مهما اختلفت أعراقهم فقد خلقوا من أب واحد وأم واحدة ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وحارب الإسلام كل ألوان العصبية ، ودعا إلى الأخوة والمحبة بين جميع المسلمين حتى يشيدوا صرح الإسلام العظيم ، وأخرج الإسلام أجمل ما في المؤمنين به من فكر وعلم وحضارة وتقدم ، كل ذلك مع إيمان وحسن خلق لذا لا عجب أن شهد العالم ظهور حضارة عظيمة ورثت الحضارات البائدة وارتقت بالبشرية إلى معارج الرقي والتقدم .

الحضارة الإسلامية

إن نظام الخلافة الإسلاميَّة يجعل جميع البلاد التي فتحها المسلمون ولايات تابعة لخلفاء المسلمين كأنها محافظات في دولة مركزيَّة يتحكَّم في كل شئون الولايات التابعة له ابتداء من تعيين الوالي وعامل الخراج (وزير المالية) حتى التحقيق في شكوى آحاد الرعيَّة ، كما جعل نظام الخلافة الولايات الإسلامية

كالأواني المستطرقة(١) يفيض غنيُّها على غَيْض فقيرها ؛ فلا حدود جغرافيَّة سياسيَّة ولا قيود على حركة سكانها ؛ فحريَّة التنقُّل والسفر والإقامة الدائمة أو المؤقتة مكفولة لكل الناس في بلاد الإسلام لكل المسلمين ، وقد نتج عن ذلك انصهار الولايات الإسلاميَّة في دولة الخلافة لذا لا نستطيع القول إن هناك ولاية من الولايات الإسلاميَّة أنشأت حضارة خاصة اعتمدت فيها فقط على عواملها الطبيعيَّة والبشريَّة ، لذا دأب المؤرخون على الحديث عن الحضارة الإسلاميَّة بصفة عامَّة ، ولم يتحدَّثوا قط عن حضارة بغداد أو القاهرة أو خراسان أو مكة ... كحضارات مستقلَّة كالحضارة المصريَّة القديمة ، الحضارة السومريَّة ، الحضارة البابليَّة ، الحضارة الآشوريَّة ، الحضارة الفينيقيَّة ، الحضارة الأكديَّة ، الحضارة الساسانيَّة ... فأصحاب كل هذه الحضارات وغيرها صارت تجمعهم حضارة واحدة في الخلافة الإسلاميَّة ذلك النظام الديني السياسي الذي خضعت له البلاد الإسلاميَّة أكثر من ألف سنة ، وإن كانت هناك بعض الولايات لها وضع متميز في العلم والثقافة ومظاهر الحضارة كمصر ودمشق وبغداد وقرطبة .

لقد قامت الحضارة الإسلاميَّة على أكتاف كل المسلمين فمسلمو العرب فتحوا البلاد ونشروا الدين ، ومسلمو الأمم الأخرى كمصر والشام والعراق والأندلس .. أقاموا صرح الحضارة على هدى الإسلام وتعاليمه ، وبما تعلَّموه من حضارة أممهم والأمم الأخرى من أصحاب الحضارات القديمة ، وكان مسلمو العرب من الذكاء بحيث أبقوا على النظم الإداريَّة والسياسيَّة والماليَّة التي كانت مُتَّبَعة سابقاً في البلاد المفتوحة ذات الحضارة ، كما حافظوا على التقاليد الفنيَّة والصناعيَّة لدى أهلها .

وتعدُّ الحضارة الإسلاميَّة واحدة من أعظم الحضارات التي عرفها العالم " بسبب الدور الذي لعبته في تاريخ الإنسانية ، ففي بوتقة الحضارة الإسلاميَّة التقت

---

(1) تنص نظرية الأواني المستطرقة على أننا إذا ما وضعنا سائلاً ما في مجموعة أوانٍ يتصل بعضها ببعض فإن المستوى العلوي للسائل سيكون متساوياً في الأواني جميعها، على الرغم من اختلافها في الشكل والحجم .

حضارات عديدة متباعدة نجحت في اختيار العناصر الصالحة منها ثم مزجت بينها وأكملت نواحي النقص فيها . "[1]

ولاغرو أن استفادت الحضارة الإسلاميَّة من الحضارات السابقة فهي تُعِدُّ نفسها الوريثة الشرعيَّة للحضارة المصريَّة القديمة أمِّ الحضارات كما أنها انتفعت بكل العلوم الأخرى التي تتفق وشريعة الإسلام ، فالعلوم العقليَّة كالطبيعة والرياضة والتكنولوجيا لا وطن لها ولا دين " العلوم العقليَّة كالطبيعة والرياضة والطب فأكثر ما تعتمد على معقوليَّة الحقائق وامتحانها إما عن طريق المنطق ، وإما عن طريق تجربة الحقائق وامتحانها عمليّاً ، فإذا ذكرت حقيقة فقلما يعنون بقائلها ، ولكنهم يعنون بوضع قواعد المنطق ، هل من قوانينه ما يؤيدها أو ما ينقضها ، وكذلك يمتحنونها عمليّاً ليرقبوا نتيجتها فيحكموا عليها بالخطأ أو الصواب " [2]

أسس بناء الحضارة الإسلامية

وبناء على ما سبق يتبيَّن لنا الأسس التي بنيت عليها الحضارة الإسلاميَّة وهي كالتالي :

١- دين قويم عمل على توحيد العرب والمسلمين ، ونزع من نفوسهم أدران الشرك والعصبيَّة الجاهليَّة ، والسمات السلبيَّة .

٢- دعوة الإسلام إلى التفكير والإبداع وإعمال العقل ، ذم التقليد والتكرار واتباع الهوى .

٣- دعوة الإسلام للتفكر في الآفاق وفي النفس ، وهما مجال البحث العلمي الحديث.

٤- دعوة الإسلام لدراسة سير الأمم السالفة واستخلاص العبرة منها .

٥- ربط الإيمان بالعمل الصالح الذي يعني كل عمل يعود بالنفع على الإنسان أو غيره سواء أكان دينيّاً أم دنيويّاً .

---

(1) د. أحمد عبد الرازق أحمد " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " دار الفكر العربي ص ١١

(2) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ١٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٦- الانفتاح على الحضارات الأخرى وترجمة علومها ومعارفها وفنونها إلى العربيَّة .

٧- تشجيع الخلفاء والأمراء العلم والعلماء ، والإنفاق عليهما بسخاء .

٨- علو منزلة العلماء بين الناس بفضل تعاليم الدين الإسلامي الذي رفع درجتهم ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، وجعل تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

٩- إنشاء المدارس والجامعات والمكتبات ودور العلم وجعلها جميعاً بالمجان لطلاب العلم والمعرفة .

١٠- الإنفاق على طلاب العلم وتأمين معاشهم ، وإتاحة حرية السفر لهم.

١١- عدم الحجر على آراء العلماء ، وفتح باب الاجتهاد أمامهم واسعاً .

١٢- أدب الاختلاف ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وعدم الاحتكام للعنف في نشر العلم .

خصائص الحضارة الإسلامية

أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

١ - الوحدانية المطلقة في العقيدة :

لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فقد نادت بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعيد، وهو وحده الذي يُقصد وهو الذي يعز ويذل، ويعطي ويمنح، وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.

كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحُكْم والفن والشعر والأدب، إن الإسلام الذي أعلن الحرب على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

٢ – إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة :

وثاني خصائص حضارتنا أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] .

إن القرآن الكريم حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالميَّة على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عِقْدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدَّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

٣ – مراعاة المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا :

وثالث خصائص حضارتنا أنها جعلت للمبادئ الأخلاقيَّة المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخلَّ عن هذه المبادئ قط ، ولم تجعل وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد، ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب وفي السلم وفي الاقتصاد وفي الأسرة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًّا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث،

ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

٤ – الإيمان بالعلم في أصدق أصوله :

الحضارة الإسلامية حضارة تؤمن بالعلم في أصدق أصوله ، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها ، فهي تخاطب العقل والقلب معًا ، وتثير العاطفة والفكر في وقت واحد .

وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزًا إلى الدين والعقدية دون أن يقيم الدين عائقًا ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة .

إن الحضارة الإسلامية لا يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس " وايْمُ اللهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنتَ مُحمدٍ، سَرَقَت لَقطَعَ مُحمدٌ يَدَها " [متفق عليه] .

هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني .

٥ – التسامح الديني :

وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيبًا إذا

نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحَّها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه. إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية ! وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعًا . (١)

وأسمعك يا بنتي تسخرين ممن يتحدثون عن حضارة الإسلام التي لا وجود لهم إلا في أوهامهم أو كتبهم ، كما يزعم أعداؤها ، وتقولين إن جميع محاولات المسلمين لتطبيق شريعتهم لم تجن على شعوبهم إلا الخراب .

وأذكِّرُك ثانية بما دونتيه يا بنتي يوم ٤/ ١٢ / ٢٠١٦ " لا يضحكني شيء أكثر من مقولة يرددها الملايين " احنا لو فهمنا الدين صح وطبقناه صح حياتنا هتبقى جميلة خالص" ... الذي لا نستطيع فهمه صح خلال ١٤٠٠ سنة يبقى حاجة غير قابلة للفهم ، والذي لا نستطيع تطبيقه صح خلال ١٤٠٠ سنة يبقى حاجة غير قابلة للتطبيق ... حاجة مش عايزة ذكاوة ... مشكلة أغلب المتدينين إنهم مش عايزين يفهموا إن الدين مجرد شعور بالإيمان بخالق الكون ومصدقين كلام المشايخ والكهنة إن الدين نظام سياسي واقتصادي واجتماعي عشان كدة بقالهم ١٤٠٠ أو ٢٠٠٠ سنة بيحاولوا يدخلوا الفيل من خرم الباب وبيفشلوا ، ولسة بيحاولوا .. ومضيعين عمر شعوبنا في هذه المحاولة الخرقاء لحد ما القطر سابنا وبقينا حثالة الأمم. " .

---

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

وسأقوم بتذكيرك يا بنتي ببعض إنجازات الحضارة الإسلامية التي شهد العالم بعظمتها وبفضلها على النهضة الأوربية الحديثة .

من إنجازات الحضارة الإسلامية على البشرية

لقد تركت حضارتنا الإسلامية آثارًا خالدة في مختلف النواحي العلمية والخلقية وغيرها، وحققت دورًا عظيمًا في تأريخ تقدم الإنسانية، وخلّفت آثارًا بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه المدنيات الحديثة، وليس هذا من المبالغة في شيء، ولا ضَرْبًا من التفاخر الكاذب والادعاء المذموم، وإليك بعض الشواهد الواقعية والنماذج الحية من تأريخ حضارتنا المشرق الوضاء، الذي ينضح عدلاً ورحمة وإنصافًا حتى مع المُخَالف .

إن النهضة الأوربية وما ينعم به الغرب الآن لم يكن من قبيل الصدفة إنما كان ثمرة عمل متصل وجهد دءوب لِمَا يزيد على خمسة قرون متصلة أفادوا فيها من الحضارة العربية أيما إفادة وهذه حقيقة لا ينكرها إلا جاحد ولا يعترض عليها إلا معاند ، فيقول سارتون " لولا أعمال العلماء العرب ، لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدءوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون " (١)

ففي نزعة حضارتنا الإنسانية يُعلن الإسلام المبدأ الإنساني الخالد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] لينقل الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية، والتفرقة والعصبية، والتمييز العنصري إلى المساواة والتعاون الذي لا أثر فيه لاستعلاءٍ عرقي أو عنصري، ويتجلى ذلك في مبادئ حضارتنا وتشريعاتها وواقعها.

وقد زخرت كتب السير والتأريخ بوقائع كثيرة، هذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، يرى مرة في السوق شيخًا كبيرًا يسأل الصدقة، وكان يهوديًا من سكان

---

(1) نفسه ص ١٩١ .

المدينة، فيسأله (عن حاله، وإذا بعمر المسلم الإنساني الملهم يقول له: " ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك شيخًا " وأخذ بيده إلى بيته، فقدم له من طعامه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال أن افرض له ولأمثاله ما يغنيه ويغني عياله.

هذا من شواهد الروعة الحضارية في تأريخ أمتنا المجيد.

وفي مجال النظرة إلى المُخَالِف أعلنت حضارتنا الإسلامية مبدأ الإنصاف، وحسن التعامل، والدعوة إلى الله بالحسنى، مؤكدة الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٣٦] مع الحرص على مبدأ الحوار والإقناع ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلاَ تُجَٰدِلُواْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلاَّ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التأكيد على الأخذ بقاعدة سد الذرائع في عدم سبّ آلهتهم، حتى يكون لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، والحرص على المصاحبة بالمعروف، وحسن الجوار، وكريم المعاملة، فقد كان لرسول الإسلام ﷺ جيران من أهل الكتاب، فكان يزورهم ويتعاهدهم ببره، ويقبل هداياهم، وما كتاب أمير المؤمنين عمر لأهل إيليا، وإعطاؤهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأماكن عباداتهم، وإجابتهم لاشتراطهم ألا يساكنهم فيها يهودي إلا أنموذج رائعٌ يحمل مغزى عميقًا في آثار حضارتنا الإسلامية، مما دعا كثيرًا من منصفيهم إلى الاعتراف بأن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وثمة جانب مشرق في حضارتنا الإسلامية ألا وهو جانب أخلاقنا الحربية، فقد أشرقت شمس حضارتنا والعالم كلُّه تحكمه شريعة الغاب، حتى تردّى إلى عالم الوحوش الكاسرة، فوضعت حضارتنا الضوابط الحربية محرِّمة الحرب للنهب والسلب، وإذلال كرامة الشعوب، وسحق المجتمعات، وجعلت لها غايات نبيلة، منها الدفاع عن عقيدة الأمة وأمن المجتمع وردّ عدوان المعتدين ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] فالحرب لا تنسينا مبادئنا، ولذلك جاءت الوصايا الكريمة حينما يشتد الوطيس: " لا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا شيخًا ولا وليدًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له "، جاء هذا في وصية أبي بكر الصديق حينما أنفذ جيش أسامة .

وأبلغ من هذا رسول الإسلام في غزوة أحد " لمَّا كُسِرتْ رَباعيَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ وشُجَّ في جبهتِه فجعلت الدِّماءُ تسيلُ على وجهِه قيل : يا رسولَ اللهِ ، ادعُ اللهَ عليهم فقال ﷺ : " إنَّ اللهَ تعالَى لم يبعثْني طعَّانًا ولا لعَّانًا ، ولكن بعثني داعيةً ورحمةً ، اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون " [رواه البيهقي في شعب الإيمان] وهكذا قال يوم الفتح: " يا معشرَ قريشٍ ما ترَونَ أنِّي فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٍ ، فقال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ " ورأى في بعض غزواته امرأة مقتولة فغضب وقال: " ألم أنهكم عن قتل النساء؟! ما كانت هذه لتقاتل" .

ويمضي تأريخنا المجيد مسجلاً هذه الروائع، ففي حروب التتار وقع بأيديهم كثيرٌ من أسرى المسلمين وأهل الذمة، فتدخل ابن تيمية في فك الأسرى، فأجابه الوالي إلى فكّ أسرى المسلمين فقط، فأبى الشيخ ذلك، وقال: "لا بد من افتكاك الجميع، من أهل ديننا وأهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة"، وهكذا تعامل حضارتنا الأسرى من المسلمين وغيرهم .

ولما فتح صلاح الدين بيت المقدس كان فيها ما يزيد على مائة ألف من غير المسلمين فبذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج منها لقاء شيء يسير يدفعه المقتدرون منهم، ومن لا يقدر من الفقراء ففداؤه عليه . (١)

(١) الشيخ عبد الرحمن السديس نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

آثار الحضارة الإسلامية في تاريخ الإنسانية

إنّ الحضَارَات إنَّما تخلُد بمقدار ما تُقدمه في تاريخ الإنسانيَّة من آثار خالدة في مُختلف النَّواحي الفِكرية، والخلقية، والمادية، والحَضَارة الإسلامية لعبت دورًا خطيرًا في تاريخ التقدُّم الإنْسَاني، وتركت في ميادين العقيدة والعلم، والحكم والفلسفة، والفن والأدَب وغيرها – آثارًا بعيدة المدى، قويةَ التأثير فيما وصلت إليه الحَضَارة الحديثة، فما الآثار؟ وما أهميتها؟

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين أربعة رئيسة:

أولاً : في ميدان الفلسفة والعلوم

أفاقت أوروبا في عصورها المظلمة على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرِّسون هذه العلوم في مساجد إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها، وكان روَّاد الغَربيين الأُول بمدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكُلِّ ما يستمعون إليه من هذه العلوم، في جوٍّ من الحرِّية لا يعرفون له مثيلاً في بلادهم؛ ففي الوقت الذي كان فيه علماؤنا يتحدَّثون في حلقاتهم العلميَّة ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويَّتها، وحركات الأفلاك والأجرام السماويَّة – كانت عقول الأوروبيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كُلِّها؛ ومن ثَمَّ ابتدأت عند الغَربيين حركة التَّرجمة من العَربية إلى اللاتينية، وغدت كُتُب علمائنا تُدرَّس في الجامعات الغَربية؛ فقد تُرجم كتاب (القانون) في الطبِّ لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما تُرجم كتاب (الحاوي) للرَّازي – وهو أوسع من القانون وأضخَم – في نهاية القرن الثالث عشر، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوروبية حتَّى القرن السادس عشر، أمَّا كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك، ولم يعرف الغَرب فلسفة اليونان إلاَّ عن طريق مُؤلفاتنا وترجماتنا، ومن هنا يعترف كثير من الغَربيِّين بأنَّنا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوروبا مدةً لا تقل عن ستمائة سنة.

يقول العلاَّمة المستشرق "سيديو": "كان العَرب وحدَهم حاملين لواءَ الحَضَارة الوسطى، فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غاراتُ قبائل الشمال، وسار العَرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة، فلم يقفوا عند حدِّ ما اكتسبوه من كُنُوز المعرفة، بل وسعوه وفتحوا أبوابًا جديدة لدرس الطبيعة"، ويقول أيضًا: "والعَرب حين زاولوا علم الهيئة عُنُوا عناية خاصَّة بالعلوم الرياضية كلِّها؛ فكان لهم فيها القدح المعلَّى، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة " .

ويقول "هومبلد" في كتابه عن الكون: "والعَرب هم الذين أوجدوا الصَّيْدَلَةَ الكيماوية، ومن العَرب أتت الوصايا المُحكَمة الأولى التي انتحلتها مدرسة (ساليرم) فانتشرت في جنوب أوروبا بعد زمَن، وأدَّت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فنُّ الشفاء إلى دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحدٍ، ومن طريقين مُختَلِفين، وبالعَرب فُتِحَ عهدٌ جديد لذلك العلم " .

ويقول "سيديو" عن الرَّازي وابن سينا: " إنَّهما سيطرا بكُتُبهما على مدارس الغَرب زمنًا طويلاً، وعُرف ابن سينا في أوروبا طبيبًا؛ فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدَّة ستة قرون تقريبًا، فتُرجِم كتابه (القانون) المشتمل على خمسة أجزاء، وطُبع عدَّة مرات؛ لِعَدِّه أساسًا للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا " .

مناقشة حول ابن سينا والرازي

قالت منَّة معلقة على حديثي عن ابن سينا : " فى صفحة رقم ١١٦ ذكرت فضل ابن سينا من باب المباهاة بانجازاته وانها ثمرة للحضارة الاسلامية رغم ان ابن سينا عانى فى حياته الامرين من تضييق تلك الحضارة ودخل السجن مرات واتفق فقهاء عصره على تكفيره، فعن اى حضارة وحرية تتحدث!! " .

الحقيقة يا بنتي على النقيض مما ذكرتيه فلقد كان للحضارة الإسلامية وحكامها أعظم الأثر في نشأة وتكوين ابن سينا ، ولم يعادِ بعض الناس ابن سينا بسبب اشتغاله بالعلم إنما بسبب اشتغاله بالسياسة وعمله كوزير ، أما تكفير بعض

العلماء ابن سينا فكان هذا رأيهم في آرائه الفلسفية لا في بحوثه العلميَّة ، والحضارة الإسلاميَّة اتَّسعت لجميع الآراء والأفكار الدينيَّة والفلسفيَّة وإن كانت متطرِّفة وشاذة . وسوف أذكر لك ما كتبه ول ديورانت المؤرخ الأمريكي الشهير الذي أعتقد أن شهادته غير مجروحة بالنسبة لك " وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها، وفتحوا له أبواب مكتبة بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات " .

ويقول عنه أيضاً : " وشفى وهو في السابعة عشر من عمرهِ نوح بن منصور أمير بخارى من مرضهِ، معين في منصب في بلاطهِ، وكان يقضي في الدرس ساعات طوالاً في مكتبة السلطان الضخمة. ولما قضي على سلطان السامانيين في أواخر القرن العاشر الميلادي لجأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم. ولما استدعى محمود الغزنوي ابن سينا والبيروني وغيرهما من جهابذة العلماء في بلاط المأمون، لم يطع ابن سينا أمره، وفرَّ هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء. وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميلهُ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قاسى كثيراً من الصعاب، وفيها عين في منصب في بلاط قابوس. ونشر محمود الغزنوي في بلاد الفرس صورة لابن سينا، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير. ولما قتل قابوس دعي ابن يسنا لعلاج همذان، وشفي الأمير على يديهِ فاتخذه وزيراً له، ولكن الجيش لم يرتح لحكمهِ، فقبض عليه ونهب بيتهُ، وأراد أن يقتله. واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ في بيت صيدلي، وبدأ وهو في مخبئهِ يؤلف كتبهُ التي كانت سبباً في شهرتهِ. وبينما هو يدبر لنفسهِ أمر الفرار سراً من همذان قبض عليه ابن الأمير وزج به في السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف. واستطاع مرة أخرى أن يفرَّ من السجن، وتخفى في زي أحد رجال الطرق الصوفية، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ في بلاط علاء الدولة البويهي أمير أصفهان، ورحب بهِ الأمير وكرمهُ، وهنا التفت حوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه. ويستدل من

بعض القصص التي وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب، كما يستمتع بملاذ الدرس. غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس، والتعليم، والشؤون العامة " .

وعادت منَّة تقول : " وابن سينا ليس استثناءا فقد عانى اغلب العلماء الذين عاشوا فى ظل الخلافة الاسلامية، وذكرت ايضا ابو بكر الرازى رغم ان كتبه تشهد بأنه لم يكن مسلما واتفق الفقهاء ايضا على تكفيره واعتقد انك تعلم جيدا مصير كتب ابن رشد وكتب المعتزلة التى احرقت جميعا حتى بتنا نعلم عنهم من كتب المخالفين لهم. " .

أبو بكر الرازي الذي تزعمين أنه ليس مسلماً تقول عنه الموسوعة العربية (1) : " أبو بكر الرازي. كان من الأطباء المسلمين الذين برعوا في المعالجة بالأعشاب. درس الرازي الطب والصيدلة وعلم الكيمياء وأشرف على المستشفيات في مدينة الرّي وعلى مستشفيات بغداد بعد ذلك. وكان الرازي قد وضع كتابًا أسماه المنصوري؛ تُرجم إلى اللاتينية بوساطة جيرار الكريموني. ودُرِّست الأجزاء الطبية منه في أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادي. ومن أشهر كتب الرازي في المعالجة بالأعشاب كتابه الحاوي. وكان هذا الكتاب واحدًا من تسعة كتب كانت تُدرّس في كلية الطب بباريس عام ١٣٩٤م." .

ويقول عنه ديورانت " ولقد كان الرازي بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريري (الكلينيكي) في العصور الوسطى . ومات الرجل فقيراً في الثانية والثمانين من عمرهِ. وقد علقت في مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين هما: الرازي وابن سينا. وكان أبو علي الحسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه " (2)

(1) الموسوعة العربية العالمية : عمل موسوعي ضخم اعتمد في بعض أجزائه على النسخة الدولية من دائرة المعارف العالمية World Book International . شارك في إنجازه أكثر من ألف عالم، مؤلف، ومترجم، ومحرر، ومراجع علمي ولغوي، ومخرج فني، ومستشار، ومؤسسة من جميع البلاد العربية .
(2) ول ديورانت " قصة الحضارة " ج ١٤ ص ٥٣ .

نعم بعض العلماء رمى الرازي وابن سينا بالكفر بسبب آرائهما الفلسفية لا بسبب علومهما الطبية ولم يتعرض أحدهما للاضطهاد بسبب اعتقاده وآرائه الدينية ، وهذا ما يؤكد مناخ الحرية الذي ساد الحضارة الإسلامية الذي ازدهرت فيه شتى العلوم والمعارف ، وإن كانت هناك استثناءات فإنها تؤكد القاعدة ولا تنفيها .

وبعد أن ناقشنا رد منه حول ابن سينا والرازي نعود لاستكمال الحديث عن آثار الحضارة الإسلامية .

ثانياً : في ميدان اللُّغة والأدَب:

فقد تأثر الغَربيُّون – خاصَّة شعراء الإسبان – بالأدَب العَربي تأثرًا كبيرًا؛ فقد دخل أدب الفُرُوسيَّة والحماسة، والمجاز والتَّخيُّلات الراقية البديعة إلى الآدَاب الغَربية، عن طريق الأدَب العَربي في الأندَلس على الخصوص؛ يقول الكاتب الإسباني المشهور "أبانيز": "إنَّ أوروبا لم تكن تعرف الفُرُوسيَّة، ولا تدين بآدابها المرعيَّة، ولا نخوتها الحماسيَّة قبل وفود العَرب إلى الأندلس، وانتشار فُرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب".

ومِن عباقرة الأدَب في أوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده – مَن لا يُشَكُّ أبدًا في تأثير الآدَاب العَربية على قصصهم وآدابهم؛ ففي سنة ١٣٤٩هـ كتب "بوكاشيو" حكاياته المُسماة بـ "الصباحات العشرة"، وهي تَحذو حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته "العبرة بالخواتيم"، كما اقتبس لسنغ الألماني مسرحيته "ناتان الحكيم".

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه؛ فقد لَقِيَه في إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (حكايات كانتربري).

أما (دانتي)، فيؤكد كثيرٌ من النُّقاد أنَّه كان في (القصَّة الإلهيَّة) – التي يصف فيها رحلتَه إلى العالم الآخر – متأثرًا برسالة الغفران للمعرِّي، ووصف الجنة لابن عربي.

وقد تأثرت القصَّة الأوروبيَّة في نشأتها بما كان عند العَرب من فنون القصص في القُرُون الوسطى، وهي المقامات، وأخبار الفُرُوسيَّة، ومُغامرات الفرسان في سبيل المجد والعِشق، وكان لألف ليلة وليلة – بعد ترجمتها إلى اللُّغات الأوروبيَّة في القرن الثاني عشر – أثرٌ كبيرٌ جدًّا في هذا المجال؛ حتَّى إنها طُبعت منذ ذلك الحين حتَّى الآن أكثر من ثلاثمائة طبعَة في جميع لُغات أوروبا؛ حتى لَيرى عددٌ من النُّقاد الأوروبيين أن رحلات (جليفر) التي ألَّفها (سويفت)، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفها (ديفوه) – مدينة لألف ليلة وليلة، ولرسالة "حي بن يقظان" للفيلسوف العَربي ابن طفيل.

ولا حاجة بنا إلى أنْ نذكر ما دَخَل اللُّغات الأوروبية على اختلافها منْ كلمات عربيَّة في مُختلف نواحي الحَيَاة؛ حتَّى إنها لتكاد تكون كما هي في اللُّغة العَربية: كالقطن، والحرير الدِّمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصِّفر، وغيرها مِمَّا لا يُحصى.

ثالثاً : في ميدان التَّشريع:

فقد كان لاتِّصال الطُّلاب الغَربيِّين بالمدارس الإسلاميَّة في الأندلس وغيرها – أثرٌ كبيرٌ في نقل مجموعة من الأحكام الفقهيَّة والتشريعيَّة إلى لُغاتِهم، ولم تكن أوروبا في ذلك الحين على نظام مُتقن ولا قوانين عادلة؛ حتَّى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجمَ أشهر كُتُب الفقه المالكي إلى اللُّغة الفرنسيَّة، ومن أوائل هذه الكتب "كتاب خليل" الذي كان نواة القانون المدني الفَرَنسي، وقد جاء مُتشابهًا إلى حدٍّ كبير مع أحكام الفقه المالكي، يقول العلامة "سيديو": "والمذهب المالكي هو الذي يستوقفُ نظرنا على الخُصُوص؛ لما لنا من الصِّلات بعرب إفريقيَّة، وعهدت الحُكُومة الفرنسيَّة إلى الدكتور بيرون في أن يُترجم إلى الفرنسيَّة كتاب "المختصر في الفقه"، للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢م".

رابعًا: في مفهوم الدَّولة وعلاقة الشَّعب بالحكومة.

فقد كان العالم القديم والوسيط يُنكر على الشَّعب حقَّه في الإشراف على أعمال حُكَّامه، كما يجعلون الصِّلة بينه وبين الحاكم صلةً بين العبد وسيِّده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرَّف بالشَّعب كما يشاءُ، وكانت المملكة تُعدُّ ملكًا خاصًّا للملك تُورثُ عنه كما تورث بقيَّة أمواله، ويستبيحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المُطالبة بحصة أميرة في العرش، أو للخلاف على ميراث الأصهار.

أمَّا العلاقة بين الأمم المُتحاربة، فهي استباحة الغالب لكُلِّ ما في يد المغلوب، وما في وطنه من مال وعِرض وحُرِّية وكرامَة، وظَلَّ الأمر كذلك حتَّى قامت الحَضَارة الإسلاميَّة تعلن فيما تعلن من مبادئها: أن الشَّعب هو صاحب الحقِّ في الإشراف على حُكَّامه، وأن هؤلاء ليسوا إلاَّ أُجَرَاء يسهرون على مصالح الشَّعب وكرامَته بأمانة ونزاهة، وفي هذا يقع لأول مرَّة في التَّاريخ أن يحاسب فردٌ من أفراد الشَّعب حاكمَه عما يلبس، من أين جاء به؟ فلا يحكم عليه بالإعدام، ولا يُقاد إلى السجن، ولا يُنفَى من الأرض، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتَّى يقتنع ويقتنع الناس، ولأول مرَّة في التَّاريخ يقول أحد أفراد الرَّعيَّة لحاكمِه الأكبر: السَّلام عليك، أيُّها الأجير، فيعترف الحاكمُ بأنَّه أجير الشَّعب، عليه ما على الأجير من حقِّ الخدمة بإخلاص، والنصح بأمانة، أعلنت الحَضَارة الإسلاميَّة هذا فيما أعلنته وطبَّقته بعد ذلك، فما هي إلا نسمة الحرية والوعي تهبُّ في الشعوب المجاورة للمُجتمع الإسلامي، فتتململ، ثم تتحرَّك، ثم تثور، ثم تتحرَّر.

وكان مما أعلَنَتْه حَضَارتنا في حُرُوبها: احترام العهود، وصيانة العقائد، وترك المعابد لأهلها، وضمان حُرِّيات النَّاس وكرامتهم، فأثارت في الشُّعوب المغلوبة لحكمها روح العِزَّة والكرامة، ونبهت فيهم معاني الإنْسَانية الكريمة العزيزة .

وكان في التَّاريخ لأول مرَّة أن يشكوَ والدُ مغلوبٍ الحاكمَ الغالبَ إلى رئيسِ الدَّولة الأعلى، من أنَّ ولدَ الحاكمِ قد ضرب ولده الصَّغير خفقتَين بالسَّوط على رأسه من

غير حق، ويغضب رئيس الدَّولة الأعلى، ويحاسب ولد الحاكم ويقتَص منه، ويقرع الحاكم ويؤنبه، ويقول له: "متى استعبدتم النَّاسَ وقد ولدتهم أمَّهاتُهم أحرارًا؟!".

إنَّ هذه روح جديدة تبعثُها حَضَارتُنا في الأفراد والشعوب.

وبعد، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحَضَارتنا في أربعة ميادين رئيسة، هي أبرز مظاهر الحَيَاة في الأُمَم والحضَارَات؛ ومن أجْل ذلك كان لنا – نحن أبناء هذه الحَضَارة – دَين على الشُّعوب التي حرَّرتها حَضَارتنا، يجبُ أن نستردَّه لا بالتَّفاخر الكاذب، ولا بالأماني والأباطيل، بل بمعرفتنا لقَدْر أنفسنا، وقيمة حَضَارتنا، وسُمُو تُراثنا، واستحقاقنا لأَنْ نكون الأمة الوسط التي تشهد على النَّاس، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة . (١)

مناقشة حول حقيقة بناء العرب الحضارة الإسلامية

كان رد منَّة على بناء العرب حضارة إسلامية : " هل حقا بنى الاسلام حضارة اسلامية؟ او بمعنى ادق هل كانت الحضارة التى نشأت نتيجة عن تطبيق الاسلام؟ لا اعتقد، فلو ان الاسلام هو منشئ تلك الحضارة لكانت مكة او المدينة هما منارتا الحضارة الاسلامية، وذلك لم يحدث ابدا فلم يكن لهما اى دور فى مسيرة الحضارة وكانت مراكز الحضارة هى بغداد ودمشق مصر، وهى المدن ذات الحضارة العظيمة من قبل الاسلام حتى علماء الاندلس لم يكونوا عربا واغلبهم لم يكونوا مسلمين وانتهى بهم الامر الى احراق كتبهم وتكفيرهم. "

اعلمي يا بنتي أن أهل مكة والمدينة هم الذين قاموا بالدين الإسلامي إيماناً وتطبيقاً وتعليماً وجهاداً في سبيله ونشره في سائر ربوع العالم الإسلامي ، وأهل مكة والمدينة كانوا منارات الحضارة الإسلامية في علوم الدين وحسن السياسة وإن كانت هناك استثناءات فإنها تؤكد القاعدة .

---

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

أما الحواضر الإسلامية : دمشق ، وبغداد ، ومصر ، والأندلس .. فقد قامت بالفعل – كما يقول ابن خلدون – بمنجزات الحضارة الإسلامية في العلوم والفنون والثقافة . ولكن قولي لي يا بنتي كيف كان حال هذه البلاد تحت حكم الفرس والروم وقبل أن يفتحها أهل مكة والمدينة وينشروا فيها الإسلام ؟

الحقيقة يا بنتي إن حضارة هذه البلاد : المصرية القديمة ، والآشورية ، والبابلية ، والساسانية ، والفينيقية كانت قد ماتت ولم يبق منها إلا آثارها الشاهدة عليها ، فلما فتح المسلمون هذه البلاد وحرروها ممن دمَّروا حضاراتها وأذلوا شعوبها ونهبوا ثرواتها ، نشر المسلمون فيها الحق والعدل ودعوة دين الإسلام إلى العلم والتعليم ، والفكر والتفكير ، والفهم والتدبر ، والنظر في أقطار السموات والأرض وفي النفس {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ } {النساء:٥٨} وقول النبي ﷺ " الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " [متفق عليه] { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [المجادلة: ١١] وقول النبي ﷺ " مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحيتَانُ في المَاءِ ، وَفضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِرٍ " [صحيح أَبُي داود والترمذي] .{ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ * وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ } [الغاشية : ١٧ –٢٠] {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] [البقرة:١٦٤] .

إن العرب المسلمين ، رغم تراثهم العريق القديم الذي تمثل، في حضارات معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن، إلا أنهم وجدوا في البلاد التي فتحوها حضارات قديمة راقية، ولها نظم في الزراعة وأعمال الري والصناعة، ولها تاريخ حافل في ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء، فأقرُّوا النافع من هذه النظم وأحيوا من العلوم والمعارف وما يتفق مع عقيدتهم. وهذا هو السر في تلك الحضارة العظيمة .

لقد قام المسلمون بنقل وترجمة وتعريب التراث الحضاري الإنساني ثم إذا ما تم لهم دراسته واستيعابه أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون، حتى قدَّموا للعالم ما عرف بالحضارة العربية الإسلامية . وهذه ميزة تحسب لها لا عليها، إذ تعنى تفتح العقل المسلم واستعداده لتقبُّل ما لدى الآخرين، ولكن وضعه فيما يتناسب والنظام الإسلامي الخاص بشكل متكامل، ولا ينقص من الحضارة الإسلامية استفادتها من الحضارات السابقة، فالتقدُّم والتطوُّر يبدأ بآخر ما وصل إليه الآخرون، ثم تضيف الحضارة الجديدة وتكمل ما بدأته الحضارات الأخرى .

مناقشة حول تأثر دانتي بالتراث الإسلامي

قالت منَّة عن تأثر " دانتي " بالتراث الإسلامي : " فى صفحة ١١٨ ذكرت ان "دانتى" فى كتابه "القصة الالهية" تأثر برسالة الغفران ووصف الجنة لابن عربى، بالمناسبة لا يوجد كتاب لدانتى يدعى القصة الالهية، انما "الكوميديا الالهية" ذلك هو العمل الاشهر لدانتى وهو يصف الحياة بعد الموت ومراحلها، الجحيم والمطهر والجنة، وذلك حسب العقيدة الكاثوليكية."

معك حق يا بنتي فكتاب " دانتي " هو " الكوميديا الإلهية " وأنا نقلت المعلومة دون مراجعتها ، وهي معلومة معروفة جداً ، وجلَّ من لا يسهو .

أما أن " دانتي " وصف الحياة بعد الموت حسب العقيدة الكاثوليكية . فاعلمي يا بنتي أن كبار مؤرخي الأدب الأوروبي يقرُّون بما لا يدع مجالاً للشك، أن

دانتي تأثر في هذا العمل بـ " رسالة الغفران " لأبي العلاء المعري الذي سبقه بـ ٢٦٤ سنة، وأخذ الفكرة والمنهج . الشاعران تخيلا الشعراء في العالم الآخر وهم يستغفرون ربهم من ذنوبهم العظيمة. كما قام الشاعران بإخراج مسرحية الواقع التاريخي للشخصيات المهمة في مجتمعهم وثقافتهم في إطار متخيل متقن ومدهش، تماماً كما ظهرت "رسالة الغفران" في العهد الإسلامي لفترة طويلة حين ظهرت الأفكار المنقولة والمماثلة كـ "الكوميديا الإلهية" لدانتي و" الفردوس المفقود" لملتون .الدليل الأقوى على نسخ دانتي لفكرة "رسالة الغفران" ظهر في القرن العشرين على يد مستشرق إسباني معاصر، عندما عثر على مخطوطين لترجمتين لقصة «الإسراء والمعراج»، خلص منها إلى نظرية تثبت أن دانتي قد بنى كوميدياه على أفكار وأصول إسلامية، من بينها " رسالة الغفران " وقصة " الإسراء والمعراج " .

مناقشة حول الفتوحات الإسلامية

قالت منَّة عن الفتوحات الإسلامية : " قد استرسلت فى كتابك فى وصف مدى سماحة الفاتحين المسلمين كما لو كانوا انتصروا بالورود والازهار، فتح المسلمون البلاد بالسيف واستعبدوا اهلها، وادعوك لقراءة كتاب فتح البلدان للبلاذرى حتى تدرك حجم المعناة والذل الذى رأته الشعوب تحت هذا الحكم الذى تصفه بالسماحة." .

والرد على هذا الاتهام يحتاج إلى صفحات طوال ولقد كتبت فيه فصلاً كاملاً (١) – أكثر من خمسين صفحة – ولقد اعتمدت على الكتب والمراجع المسيحية في الإجابة عن التساؤلات التالية :

١–ماذا كان حال المصريين قبل الفتح العربي ؟

٢–ما موقف المصريين من الفاتحين العرب ؟

(1) في كتاب " لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورومتوسطين ، فمن نكون ؟

٣-هل كان الفتح العربي احتلالاً استيطانيّاً ؟ وكيف تمَّ هذا الفتح ؟

٤-هل أحرق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندريَّة عند الفتح أو بعده ؟

٥-كيف حكم الولاة المسلمين مصر ؟

٦-ما حقيقة الجزية التي فرضها المسلمون على المصريين ؟

٧-لماذا ثار المصريون على بعض الولاة الأمويين والعباسيين ؟

٨-كيف دخل المصريون في الدين الإسلامي أفواجاً ؟

٩-هل المسيحيون مصريون ، والمسلمون عرب ؟

١٠-هل الإسلام خصيصة عربيَّة أم دعوة عالميَّة ؟

١١-ما الفرق بين العرب المُسْتَعْرِبَة ، والعرب المُسْتَعْجَمَة ؟

وسوف أقتطف من هذا الفصل بضع فقرات تخص موضوع النقاش .

حال المصريين قبل الفتح الإسلامي

يقول د. ميلاد حنا : " عندما دخل القبط القرن السابع الميلادي كانت أزمة المجتمع من خلال الصراعات الدينيَّة قد استعصت على الحل وهنا حاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م) أن يعيد الوحدة إلى جسم الإمبراطوريَّة الممزَّق ، فطرح مذهباً دينيّاً جديداً عام ٦٢٢م بأن يوفِّق بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (كنيسة الإسكندريَّة) وأصحاب مذهب الطبيعتين (كنائس قسطنطينيَّة وروما) وأقام مذهبه التوفيقي على أساس وحدة المشيئتين في شخص المسيح أي المشيئة الإلهيَّة والمشيئة الإنسانيَّة .

ولم تنجح محاولات هرقل رغم استخدامه العنف ، ودخلت مصر فيما أسماه المؤرِّخون " عهد العذاب العظيم " واضطر البطريرك بنيامين الأول (٦٢٣ – ٦٦٢ م) أن يترك كرسيِّه ويختفي هارباً فتشرَّد الأساقفة والقسس وأرغم الكثيرون

من الأهالي – بما في ذلك عدد من رجال الدين – على التنكُّر لعقيدتهم وهذا هو سر استمرار هذه الأقليَّة الهزيلة من " الروم الأرثوذكس " في مصر .

وحدث هذا كله في وقت احتدم فيه سخط الشعب واختل الأمن وتردَّت التجارة والصناعة وكانت هذه الأحوال كلها باعثاً للمصريين على الترحيب بالعرب ويحدوهم الأمل في أن يتمتعوا بحياة فيها راحة وطمأنينة . " (١)

كيف فتح المسلمون مصر ؟

يقول يعقوب نخلة في كتابه " تاريخ الأمة القبطيَّة " الذي يمثِّل تاريخ الكنيسة المصريَّة شبه الرسمي : : " وصار عمرو يخترق الهضاب والبطاح ويجوب الفيافي والبلاد حتى وصل إلى حدود مصر فدخل مدينة العريش وذلك في ١٨ هـ ولمَّا استولى عليها وجد بها " أرمانوسة " بنت المقوقس فلم يمسَّسها بأذى ولم يتعرَّض لها بشرٍّ بل أرسلها إلى أبيها في مدينة منف مكرَّمة الجانب معزَّزة الخاطر فعدَّ المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة من عمرو وحسبها منه له ." (٢)

ويقول أيضاً : " لمَّا وصل عمرو إلى بابليون وجد الحصن غاصّاً بأعظم أبطال الروم وأجنادهم فنزل أمامه بعسكره وحاصره وضيَّق على من فيه واستمر محاصراً له سبعة أشهر موالياً الهجوم من وقت إلى آخر والمقوقس يتظاهر بمقاومة جنود العرب وصد هجماتهم فلم يشك أحد من رؤساء جنود الروم في إخلاصه لدولته ولما طال الحصار وأبطأ الفتح طلب عمرو من الخليفة أن يمدَّه بالرجال فأنفذ إليه أربعة آلاف مقاتل فتقوَّى بهم وشدَّد الحصار وجعل يتخابر مع الروم في أمر التسليم بالتي هي أحسن فأبوا كل الإباء غير أن المقوقس كان يميل إلى ذلك تخلُّصاً من الروم إلا أنه لم يستطع أن يكشف عن غامض رغبته لأن رجاله ولاسيما الروم منهم لم يكونوا كلهم من حزبه ولما رأى تشديد الحصار وتجلُّد

(٢) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٩٤، ٩٥.
(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٣٩، ٤٠

العرب على القتال عمد هو ومن معه من الذين كان يعتمد عليهم ويركن إليهم إلى الانسحاب من الحصن فانسحب منه وعبر نهر النيل وذهب إلى الجزيرة المعروفة الآن بالروضة وتحصَّن فيها وحصَّن مدينة منف أيضاً وترك الحصن في يد نفر قليل وكانت قيادة الجند موكلة لعهدة رجل من الروم يُسمَّى الأعرج وهذا لمَّا رأى أن المقوقس قد انسحب من الحصن تبعه برجاله وبقي في عهده عدد قليل من القبط لم يقووا على مقاومة العرب فعمدوا إلى الهرب قاصدين منف " (١)

لماذا رحَّب المصريون بالفاتحين المسلمين ؟

لم يعتبر المصريون الفتح العربي الإسلامي غزواً واحتلالاً إنما اعتبروه منقذاً لهم من الظلم الروماني ؛ فقد سمعوا بعدل المسلمين في الأمم التي فتحوها .

يقول د. ميلاد حنا : " في القرن السابع دخل العرب إلى مصر في ظروف خاصة غير متكرِّرة إذ لم يتم الغزو بحد السيف ، بل رحَّب المصريون بالعرب كجزء من الخلاص في " عهد الاضطهاد العظيم " والذي كان قد سنَّه هرقل إمبراطور الرومان لإخضاع المصريين لعقيدة ومذهب مسيحي يختلف عن المذهب الأرثوذكسي الذي تمسَّكوا وناضلوا في سبيل الاحتفاظ به . " (٢)

والذي يؤكِّد ترحيب المصريين بالمسلمين ومساعدتهم في حربهم ضد البيزنطيين هو دخول المصريين في الإسلام أفواجاً وهم الذين قاوموا بل استشهدوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم ضد الرومان وغيرهم .

ويشهد التاريخ أن المصريين على الجملة لم يشاركوا في أي حرب ضد العرب المسلمين بل إنهم ساعدوهم على فتح مصر ، وقبلوا حكمهم راضين .

يقول يعقوب نخلة : " قال المقوقس لعبادة بن الصامت " اذهب الآن أنت وأصحابك وأعلم أميرك بأني مجيب له إلى واحدة من الخصال الثلاثة التي أرسل

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٤٠ ، ٤١
(٢) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٢٥ .

إلىَّ بها . فليضرب موعداً لاجتمع أنا به في نفر من أصحابي وهو في نفر من أصحابه ليستقيم الأمر بيننا وإلا عدنا إلى ما كنا عليه . ولما اجتمعا تقرَّر الصلح بينهما بوثيقة أن يعطي الأمان للأقباط ومن أراد البقاء بمصر من الروم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وفي نظير ذلك يدفع كل قبطي دينارين ما عدا الشيخ والولد والمرأة وأُحْصِيَ من دفع الجزية في هذه السنة من القبط فكان عددهم ستة ملايين وقيل ثمانية . " (١)

حقيقة الجزية

وعلى ذكر الجزية نترك الحديث عنها للدكتور نبيل لوقا بباوي الذي ألَّف كتاباً كاملاً فيها جاء فيه: " إن الجزية التي فُرِضَت على غير المسلمين في الدولة الإسلاميَّة بموجب عقود الأمان التي وُقِّعت معهم، إنما هي ضريبة دفاع عنهم في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم من أي اعتداء خارجي، لإعفائهم من الاشتراك في الجيش الإسلامي حتى لا يدخلوا حرباً يدافعون فيها عن دين لا يؤمنون به. ومع ذلك فإذا اختار غير المسلم أن ينضمَّ إلى الجيش الإسلامي برضاه فإنه يعفى من دفع الجزية.

إن الجزية كانت تأتي أيضاً نظير التمتُّع بالخدمات العامَّة التي تقدمها الدولة للمواطنين مسلمين وغير مسلمين، والتي ينفق عليها من أموال الزكاة التي يدفعها المسلمون بصفتها ركناً من أركان الإسلام .

وهذه الجزية لا تمثِّل إلا قدراً ضئيلاً متواضعاً لو قورنت بالضرائب الباهظة التي كانت تفرضها الدولة الرومانيَّة على المسيحيين في مصر والتي كانت قدرها ٢٥ ضعفاً بالنسبة للجزية ، ولا يعفى منها أحد !! في حين أن أكثر من ٧٠% من الأقباط الأرثوذكس كانوا يعفون من دفع هذه الجزية. فقد كان يُعفى من دفعها: القُصَّر والنساء والشيوخ والعَجَزَة وأصحاب الأمراض والرهبان .

(٢) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٤٣ ، ٤٤

ولم تكن الجزية من مستحدثات الإسلام فقد فرضها اليونانيون القدماء على شعوب سواحل آسيا لحمايتها من هجمات الفينيقيين وعرفت باسم "ضريبة الرءوس" في القرن الخامس الميلادي، كما فرضها الفرس والروم على الشعوب الخاضعة لهم." (١)

كيف دخل المصريون في دين الله أفواجاً ؟

يا بنتي إذا كان المسلمون العرب قد استخدموا القوة في قتال الفرس والروم الذين احتلوا البلاد وأذلوا العباد فإن قيم الإسلام هي التي جعلت أهل هذه البلاد يستبدلون الإسلام واللغة العربية بأديانهم ولغاتهم ، وإليك حواراً جرى بين هرقل عظيم الروم وأبي سفيان بن حرب – وكان لمَّا يسلم بعد – يبين لك لماذا انتشر الإسلام .

" فَقَالَ [هرقل] لِلتَّرْجُمَانِ قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لا فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لا وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ

(1) راجع د. نبيل لوقا بباوي " الجزية على غير المسلمين عقوبة أم ضريبة " دار البباوي للنشر.

قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ "

[صحيح البخاري عن ابن عباس]

وإن شئت راجعت أيضاً حوار جعفر بن أبي طالب مع النجاشي ، وحوار ربعي بن عامر مع رستم قائد الفرس ؛ لتعرفي لماذا انتشر الإسلام وهُزِمَ الفرس والروم ومن ظاهرهم ؟

مناقشة حول من بنى الحضارة الإسلامية ؟

كان رد منَّة على بناء العرب حضارة إسلامية : " هل حقا بنى الاسلام حضارة اسلامية؟ او بمعنى ادق هل كانت الحضارة التى نشأت نتيجة عن تطبيق الاسلام؟ لا اعتقد، فلو ان الاسلام هو منشئ تلك الحضارة لكانت مكة او المدينة هما منارتا الحضارة الاسلامية، وذلك لم يحدث ابدا فلم يكن لهما اى دور فى مسيرة الحضارة وكانت مراكز الحضارة هى بغداد ودمشق مصر، وهى المدن ذات الحضارة العظيمة من قبل الاسلام حتى علماء الاندلس لم يكونوا عربا واغلبهم لم يكونوا مسلمين وانتهى بهم الامر الى احراق كتبهم وتكفيرهم. "

اعلمي يا بنتي أن أهل مكة والمدينة هم الذين قاموا بالدين الإسلامي إيماناً وتطبيقاً وتعليماً وجهاداً في سبيله ونشره في سائر ربوع العالم الإسلامي ، وأهل

مكة والمدينة كانوا منارات الحضارة الإسلامية في علوم الدين وحسن السياسة وإن كانت هناك استثناءات فإنها تؤكد القاعدة .

أما الحواضر الإسلامية : دمشق ، وبغداد ، ومصر ، والأندلس .. فقد قامت بالفعل – كما يقول ابن خلدون – بمنجزات الحضارة الإسلامية في العلوم والفنون والثقافة . ولكن قولي لي يا بنتي كيف كان حال هذه البلاد تحت حكم الفرس والروم وقبل أن يفتحها أهل مكة والمدينة وينشروا فيها الإسلام ؟

الحقيقة يا بنتي إن حضارة هذه البلاد : المصرية القديمة ، والآشورية ، والبابلية ، والساسانية ، والفينيقية كانت قد ماتت ولم يبق منها إلا آثارها الشاهدة عليها ، فلما فتح المسلمون هذه البلاد وحرروها ممن دمَّروا حضاراتها وأذلوا شعوبها ونهبوا ثرواتها ، نشر المسلمون فيها الحق والعدل ودعوة دين الإسلام إلى العلم والتعليم ، والفكر والتفكير ، والفهم والتدبر ، والنظر في أقطار السموات والأرض وفي النفس ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ﴾ {النساء:٥٨} وقول النبي ﷺ " الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " [متفق عليه] ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] وقول النبي ﷺ " مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحيتَانُ في المَاءِ ، وَفضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يَوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ " [صحيح أَبُي داود والترمذي] .﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ * وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية : ١٧ –٢٠] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] .

إن العرب المسلمين ، رغم تراثهم العريق القديم الذي تمثل، في حضارات معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن، إلا أنهم وجدوا في البلاد التي فتحوها حضارات قديمة راقية، ولها نظم في الزراعة وأعمال الري والصناعة، ولها تاريخ حافل في ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء، فأقرُّوا النافع من هذه النظم وأحيوا من العلوم والمعارف وما يتفق مع عقيدتهم. وهذا هو السر في تلك الحضارة العظيمة .

لقد قام المسلمون بنقل وترجمة وتعريب التراث الحضاري الإنساني ثم إذا ما تم لهم دراسته واستيعابه أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون، حتى قدَّموا للعالم ما عرف بالحضارة العربية الإسلامية . وهذه ميزة تحسب لها لا عليها، إذ تعنى تفتح العقل المسلم واستعداده لتقبُّل ما لدى الآخرين، ولكن وضعه فيما يتناسب والنظام الإسلامي الخاص بشكل متكامل، ولا ينقص من الحضارة الإسلامية استفادتها من الحضارات السابقة، فالتقدُّم والتطوُّر يبدأ بآخر ما وصل إليه الآخرون، ثم تضيف الحضارة الجديدة وتكمل ما بدأته الحضارات الأخرى .

نظام الحكم في الإسلام

يقول الشيخ محمد عبده : " إنه ليس في الإسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة للخير والتنفير من الشر .. هَدَم الإسلام تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم ولم يدَّعِ الإسلام لأحد ، بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه . وكان الرسول مُبَلِّغاً ومُذَكِّراً لا مُهَيْمِناً ولا مُسَيْطَراً ، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على الآخر مهما انحطت منزلته فيه إلا حق النصيحة والإرشاد " .

ثم يقرر الشيخ محمد عبده أن الأمة هي مصدر سلطة الحاكم وذلك أن " الأمة أو نائب الأمة هو الذي ينصبه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه ،

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج " ثيوكراتيك " أي سلطان إلهي .. إن بعض الناس يقولون إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني ، أفلا يكون للقاضي ؟ أو للمفتي ؟ أو لشيخ الإسلام ؟ وأقول : إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها أحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية ، قدرها الشرع الإسلامي ولا يسوغ لواحد منهم أن يدَّعي حق السيطرة على إيمان أحد ، أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريقة نظره .. إن الإيمان بالله يرفع الخضوع والاستعباد للرؤساء الذي استذلُّوا البشر بالسلطة الدينية ، وهي دعوى القداسة والوساطة عند الله ، ودعوى التشريع والقول على الله دون إذن الله ، أو السلطة الدنيوية وهي سلطة المُلك والاستبداد ، فالمؤمن لا يرضى لنفسه أن يكون عبداً لبشر مثله للقب ديني أو دنيوي ، وقد أعزه الله بالإيمان إنما أئمة الدين مُبَلِّغون لما شرعه الله ، وأئمة الدنيا مُنَفِّذون لأحكام الله ، وإنما الخضوع الديني لله وشرعه ، لا لشخوصهم وألقابهم " .

وعلى هذا النحو من الوضوح والعمق تناول الإمام محمد عبده تلك القضية ، قضية " السلطة الدينية " وذلك عندما أرادت القوى المتخلِّفة والرجعية ممثلة في " مشيخة الإسلام العثمانية " أن تعود بعقارب ساعة التطور إلى الوراء ، وبمحاولتها إجهاض سعي العرب والمسلمين نحو التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والاستنارة الدينية وذلك عن طريق تكبيل العقل الإسلامي بقيوم العصور الوسطى تحت دعاوى " السلطة الدينية " والقداسة المزعومة لأعداء تقدم المسلمين واستنارتهم وتحضرهم وانعتاقهم من أسر العصور المظلمة .

لقد أكَّدت مدرسة التجديد الإسلامي الحديثة – بلسان الإمام محمد عبده – تميُّز الإسلام عن الكهانة الكاثوليكية الأوربية :

- فدولة الإسلام ليست دولة دينية ، كما كان الحال في " القيصرية البابوية " .
- وعلماء الإسلام ليسوا رجال دين – أكليروس – يحولون – بالوساطة – بين الإنسان وبين الله ، أو يملكون سلطان الحكم على العقائد والتحليل والتحريم .

- والشريعة الإسلامية – التي لم تَدَع كل ما لقيصر لقيصر – قد وقفت عند النهج والمقاصد والحدود فيما هو ثوابت .. ثم قررت أن تكون الأمة مصدر السلطة التي تشرع وتقنِّن وتنفِّذ كي تتحوَّل مقاصد الشريعة إلى نظم تحقِّق للأمة المصالح المتجدِّدة والمتطوِّرة بتغاير الزمان والمكان .
- فالقائلون – منا – بالسلطة الدينية مقلِّدون للغرب وكهانته الكاثوليكية .. ولا علاقة لفكرهم هذا بأصول الإسلام ! (١)

ومصطلح " الحكم " منسوباً إلى الله تعالى في القرآن الكريم معناه " قضاء وفصل في التحاكم ، أي التقاضي والقضاء الإلهي ، وليس حكم وسياسة مجتمع ، كما يعنيه هذا المصطلح في أدبيات السياسة الحديثة والمعاصرة .

والآن نعود للرد على آراء مِنَّة .

تساؤلات حول الحضارة الإسلامية

لم تكد تتحدث عن خصائص الحضارة الإسلامية ومنجزاتها إلا داهمك العلمانيون بطوفان من الأسئلة ، والسخرية ، والتهكمات .

أين هذه الحضارة الإسلامية الآن ؟! وما مكانة المسلمين بين الشعوب المتحضرة ؟! وأين ما أنجزه المسلمون في كل تاريخهم مما وصل إليه غيرهم في حاضرهم ؟! ...

ولا يعطيك العلمانيون فرصة الرد عن هذه الأسئلة بل يستأنفون قائلين لم يكن للمسلمين يوماً حضارة إنما كانوا دائماً عالة على حضارات غيرهم من الأمم . إن تمسك المسلمين بتراثهم الغابر ، وأفكارهم البالية سبب تخلفهم . وما دام المسلمون يتمسكون بدينهم فلن يتقدموا أبداً ألا ترى كيف تقدَّم الغرب عندما تخلى عن دينه.

(1) د. محمد عمارة " الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية " دار الشروق ص ٢٧ – ٣٠ بتصرف .

نعم لم يتقدَّم الغرب إلا بعدما طرح الدين وراء ظهره وأخذ في أسباب العلم المادي هذا حق ، ولكن الحق أيضاً أن الدين الذي طرحه الغرب والذي كان عائقاً دون التقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلمية ! ليس هو دين الإسلام الذي يجعل العلم ، بمفهومه الشامل ، فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية .

إن الذي أدَّى إلى تخلف المسلمين ليس تمسكهم بالدين ، كما زعم العلمانيون ، إنما هو الفهم الخاطئ لطبيعة الإنسان ، ولنظام الكون ، ولخصائص الدين الإسلامي .

فالإنسان ليس روحاً فقط كما فهم كثير من وعاظ الدين ، وليس عقلاً فقط كما فهم العلمانيون، وليس غرائز جنسية فقط كما فهم الفنانون ، إنما الإنسان : روح ، وعقل ، وجسد ، وقلب .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] .

لقد خلق الله تعالى الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً ، وأنزل دينه متوازناً فإن طبق الإنسان دين الله في فهم نفسه وفى فهم الكون فإنه يحقق خلافة الأرض، وهى عبادة الله وتعمير الكون و تزكية النفس .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] .

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١] .

فالآية الأولى تبين مهمة الإنسان في الأرض وهى أن يكون خليفة في الأرض، والآية الثانية تبين مفهوم هذه الخلافة وهى عبادة الله وتعمير الكون .

ولن يتحقق هذا إلا باتباع كتب الله تعالى ورسله .

فإن أخذ الإنسان منهج الله وطبقَّه على كون الله ومخلوقاته تناغمت حياته وحياة بقية الكائنات ، وكوَّن مع بقية الكائنات منظومة بديعة ، ويؤتيه الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران : ١٤٨] .

وثواب الدنيا : السعادة ، والتقدم ، والظهور على الأعداء ..، وثواب الآخرة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وإن لم يفهم نفسه ، ولم يفهم دين الله أصبح نغمة شاذة وسط لحن قدسي عظيم فأتعس نفسه ، وأفسد حياته وآخرته . (١)

أين الحضارة الإسلامية الآن ؟

لعل حُجَة المُسْتَخِفِّين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئًا إذا قِيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين:

الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي. أما العنصر المادي فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز هذه لجاز لنا أن نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا .

أما العنصر الأخلاقي والروحي فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأوًا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلودًا.

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

---

(1) انظر مقدمة كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية " .

الثاني: أن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث أعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئًا تافهًا، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة .(١)

أسباب ضعف الحضارة الإسلامية

لقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى تراجع الحضارة الإسلامية وضعفها وعلى رأس تلك العوامل الاحتلال العثماني . فمنذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحاً للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفاً من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقا لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعية وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أما ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصاديا . " (٢)

وفي العصر الحديث عندما أخذت المجتمعات الإسلامية تخطو إلى أعتاب عصر يقظتها ونهضتها في القرن التاسع عشر وتجاهد لإزاحة ظلمات العصور المملوكية والعثمانية عن فكرها وممارساتها السياسية والاجتماعية ، وُوجِهَت "

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .
(2) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

بمشيخة الإسلام " العثمانية في الآستانة ، تلك المشيخة التي أرادات أن تحمي كل المواريث المتخلفة والرجعية التي شابت نقاء فكر الإسلام السياسي وتراث المسلمين المتقدِّم في تنظيم المجتمعات ، واجتهدت كي تلعب دور أولئك النفر من الفقهاء الذين أضفوا طابع " السلطة الدينية " على المستبدين القدامى فجاءت هي الأخرى لتجعل من سلاطين آل عثمان خلفاء لله وظلالاً له على الأرض وسيوفاً زعموا أنه قد جرَّدها وسلَّطها على رقاب عباده المؤمنين ! ..

كانت المعركة الحقيقية ، إذن ، لهذه المشيخة في سبيل تكريس التخلُّف والاستبداد والاستغلال ، عن طريق تقديس النظام السياسي الاجتماعي الذي تحميه ، بواسطة إضفاء " الصبغة الدينية " على هذا النظام حتى يصبح نقده ، فضلاً عن الثورة عليه ، جرماً دينياً وخطيئة إسلامية تجلب على أصحابها ثُهَم : الكفر والزندقة والإلحاد والمروق ؛ لأنها ثُهَم أفعل وأشد في إبعاد الناس عن هذا الميدان من ثُهَم : المعارضة واختلاف الرأي وتنوِّع الاجتهادات !!

ولحسن حظ الإسلام والمسلمين فإن هذه " المشيخة " العثمانية لم تنفرد وحدها بالميدان ، فلقد تصدَّت لها حركة التجديد الديني التي بذر بذورها ورفع أعلامها وصنع علماءها الفيلسوف الثائر جمال الدين الأفغاني ووجَّه لها أشد السهام وأقوى الطعنات إمام المجتهدين والمجددين المسلمين في العصر الحديث وأعظم عقل إسلامي وقف أمام كتاب الله منذ نهضتنا الحديثة الشيخ محمد عبده . (١)

وإن المرء ليأخذه العجب من بعض الكُتَّاب المسلمين الذين يطلقون على الاحتلال العثماني الأجنبي اسم " الفتح العثماني " !! كما يطلقون على الحكم العسكري العثماني المستبد " الخلافة العثمانية " فكأن البلاد العربية كانت بلاد كفر وإلحاد فجاء العثمانيون ففتحوها ونشروا فيها الإسلام !!

وهم بذلك يسوون بين الفتوحات التي قام بها صحابة رسول الله لتحرير الشعوب من قبضة الاحتلال الأجنبي الغاشم (الفرس والروم) وبين هذا الاحتلال الأجنبي

(1) د. محمد عمارة " الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية " دار الشروق ص ٢٦، ٢٧ .

العثماني الغاشم ، كما يسوون بين الأخلاق الإسلامية النبيلة التي اتصف بها صحابة رسول الله وبين الأخلاق اللا إنسانية التي اتصفت بها الطُّغْمة العسكرية العثمانية المستبدة كما يدنسون اسم الخلافة الإسلامية الراشدة بإطلاقه على هذا الحكم العسكري المستبد ، والمثير للدهشة أن مبررات هؤلاء الكُتَّاب الذين يدافعون عن الإمبراطورية العثمانية وحجتهم الرئيسة هي أن العثمانيين هم الذين حموا بلاد الإسلام من الدول الأوربية بلاد الكفرة !! ونسي هؤلاء – أو تناسوا – أن الحروب الصليبية هي التي أيقظت روح الجهاد الإسلامي ووحَّدت الأمة بعد فترة من التمزُّق وقضت على الخلافة الفاطمية الشيعية وأعادت مصر إلى الخلافة العباسية السنية ، ونسي هؤلاء أن هذه الحروب هي التي ولدَّت أعظم من حكم وعدل وقاد وانتصر – بعد الخلفاء الراشدين – نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي .

فلو أن الغزو العثماني العسكري الغاشم لم يحط على أمة العربية الإسلامية كقطع الليل المظلم لاستمرت النهضة الإسلامية ولما غرقت البلاد الإسلامية في بحر الظلمات .

لقد استغلَّ العثمانيون اسم الخلافة الإسلامية التي يعلمون مدى تأثيرها في نفوس المسلمين الذين كانت العاطفة الدينية لديهم أقوى من أي رابطة أخرى ليقضوا بها على حضارة الإسلام ويحبطوا بها كل حركة تحرر.

لقد كان العثمانيون السبب ليس فقط في تخلف الأمة الإسلامية بل كانوا السبب أيضاً في وقوعها في براثن الاحتلال الأجنبي : الإنجليزي والفرنسي والإيطالي لسنوات طويلة مما صيِّر الأمة الإسلامية إلى هذا الوضع المهين في الوقت الراهن .

أليس التخلف الحضاري والعزلة اللذان فرضهما العثمانيون على البلاد كانا هما السبب في الاحتلال الفرنسي ؟

والحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد الإسلام وصانعة حضارته ، وإن كان في العثمانيين خيرٌ لكانوا تعاونوا مع إخوانهم المسلمين في إقالة عثرتهم ومواصلة نهضتهم إما الذي حدث فكان استعماراً بغيضاً استعبد الشعوب واستغل مواردها وجردها من عوامل نهضتها فأول شيء عمله السلطان سليم الأول أبطل النقود العربية القديمة " وضرب نقوداً جديدة تحمل اسمه ولكنها كانت أخف من القديمة بمقدار الثلث فخسر الناس في ذلك ثلث أموالهم " (١)

أهذا هو الفتح العثماني ؟! أهذه هي الخلافة الإسلامية ؟!

ولم يكتف بذلك بل أصدر أمره " بترحيل طوائف من أعيان الناس ، ما بين قضاة ونواب قضاة وأكابر من المسلمين والمسيحيين واليهود والتجار والوراقين إلى إسطنبول ليقيموا بها إقامة جبرية ، ليكونوا أشبه بالرهائن من ناحية ، لكي يألفوا الحياة العثمانية في عاصمة الدولة " (٢)

أ ليس ذلك سبياً كالسبي البابلي والآشوري والروماني ؟! ولم يكتف سليم الأول بذلك بل عمل على تجريد المسلمين من خيرة علمائها وعمالها " وكان من بين الذي قضى السلطان سليم بتسفيرهم إلى إسطنبول عدد كبير من أرباب الصنائع المهندسين والبناءين والنجارين والمرخمين والمبلطين ، وطائفة من الفعلة ، وقيل في تعليل هذه الهجرة الإجبارية لأصحاب الحرف ، أن السلطان سليم أراد أن ينشئوا له مدرسة في إسطنبول مثل مدرسة الغوري . وأيا كان الغرض من جمعهم وتسفيرهم ، فقد ترتب على هذه العملية تعطيل خمسين صناعة على ما يقول ابن إياس " (٣)

وكانت مصر خلال هذا العهد ترزح تحت الحكم العثماني المباشر ، وكان السلطان هو الذي ينصب الباشا ، أما خزانة مصر فكانت مرتبطة بخزانة السلطنة

(1) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " الجزء الثالث مرجع سابق ص ٨١٦
(2) نفسه ص ٨١٦
(3) نفسه ص ٨١٧

مباشرة . وبالجملة إن مصر لم تكن تتمتع تحت حكم العثمانيين بالاستقرار من جراء ما كان ينشب فيها بين القوى الثلاثة من فتن . كما أن الباشاوات أنفسهم لم يكونوا مطمئني النفوس على بقائهم في الحكم لأن أمر تثبيتهم أو نقلهم كان يرجع إلى قدر ما لكل من سند بين حاشية السلطان . فكان هم الباشا جمع المال لرشوة هذه الحاشية للبقاء في الحكم مدة أطول مما أضر بمصالح البلاد والعباد إضرارا بالغا . وقد بلغ عدد هؤلاء الباشاوات ٧٦ واليا في حقبة قدرها ١٩٠ سنة فقط .

هذا وكانت ولاية مصر خلال هذا العهد عوناً للسلطان عند كل أزمة ، وكثيراً ما سيَّرت مصر الحملات إلى الأقطار التي تثور على السلطنة كاليمن وسوريا والحركة المهدية في المملكة العربية السعودية ؛ وكثيراً ما جنِدت النجدات مساعدة للدولة على أعدائها ، كما فعلت في حرب فارس .

لقد قام الاحتلال العثماني بأعمال دمَّرت فيها الحضارة الإسلامية ، وقضت على الأمة العربية منها :

١- إغلاق المدارس فانشر الجهل .

٢- ترحيل العلماء البارزين ، والصناع المهرة ، والفنانين المبدعين من بلادهم العربية ، وتوطينهم في استانبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية لكي يبنوا لهم فيها حضارة للدولة العثمانية التي كانت تتسم بالقوة وتفتقر إلى الحضارة والعلم .

٣- استنزاف الموارد الاقتصادية ، وحرمان بلاد المسلمين منها .

٤- العمل على القضاء على اللغة العربية لغة الإسلام وحضارته ، لحساب اللغة التركية ، وهو ما عرف بالتتريك : أي جعل اللغة التركية لغة رسمية للبلاد الإسلامية الخاضعة للحكم العثماني.

٥- إطلاق أيدي ولاتهم في البلاد العربية في أموال الناس يتخوَّضون فيها بالسلب والنهب . مما تترتب على ذلك انتشار الفوضى والفزع وعدم الاستقرار .

١٠- استبداد الحكام ، واستخدام العنف في مقاومة معارضيهم .

لهذه الأسباب وغيرها غرق العرب والمسلمون في مستنقع التخلف والجهل ، وأصبحوا صيدا سهلا لبلاد أوربا الناهضة .

أسباب تخلُّف المسلمين في العصر الحديث

لقد تكاتفت عوامل كثيرة تسببت في تخلف المسلمين وهوانهم بعد أن تحرروا من الاحتلال العثماني .

إذا كان سبب تقدُّم المسلمين كما ذكرنا كان إخلاص العقيدة ، وحسن الخلق ، واستقامة السلوك ، والأخذ في أسباب العلم والتحضر – فإن سبب تخلفهم كان ضعف العقيدة ، وسوء الخلق ، واعوجاج السلوك ، وإهمال العلم ، وهذا ما حذَّر منه النبي ﷺ فعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قُلْنَا : مِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : لا ، أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، يَنْزَعُ اللَّهُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ ، قِيلَ : وَمَا الْوَهَنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ. " [صحيح أبي داود] .

ولا يظنن ظانٌّ أن المقصود بكراهية الدنيا تركها والإعراض عنها بل ترك حبها والتعلق بها ، فالدنيا يجب أن تكون بأيدينا لا في قلوبنا .

مناقشة حول استبداد الخلفاء المسلمين

ردَّت مِنَّة على كلامنا عن أسباب ضعف الحضارة الإسلامية قائلة : " اراك تذم الخلافة العثمانية وتصفها بأنها جائرة وظالمة وغير اسلامية، احسبك تستحسن حكم ابو العباس السفاح العباسى، ام الخلافة الاموية وفظائعها؟ ام الخلافة الراشدة التى حمل فيها الصحابة السيوف ضد بعضدهم البعض؟ عن اى خلافة عادلة تتحدث؟

اعلمي يا بنتي أن المسلم الحقيقي يحب الحق وأهله ويكره الظلم وحزبه ، وليس هناك مسلم حُجَّة على الإسلام إلا رسول الإسلام فقط ، وما عداه فالإسلام حُجَّة

عليه ﴿اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [غافر:١٧] ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ [الإسراء:١٥] وهل من العدل أن نحمِّل الديانة المسيحية جميع المجازر والمظالم التي ارتكبها الحكَّام المسيحيون ابتداء من عصر الشهداء حتى غزا الرجل الأوربي الأبيض أمريكا وأباد الهنود الحمر وأحلَّ الرقيق الأسود محلهم مروراً بالحروب الصليبية وحرب المائة عام ومحاكم التفتيش ؟! فهل تنسب هذه الجرائم للمسيحية بدعوى أن الذين قاموا بها مسيحيون؟

وهل تنسب مجازر الصهيونية ضد العرب لليهودية بدعوى أن الذين قاموا بها يهود ؟

وهل تقبلين أن تنسب للعلمانية الجرائم والمظالم من احتلال إنجلترا وفرنسا بلادَ الشرق إلى الغزو الأمريكي العراقَ مروراً بالحربين العالمتين : الأولى والثانية بدعوى أن الدول التي قامت بذلك دول علمانية ؟

يا بنتي إننا نحن – المسلمين – نؤمن بأن كل إنسان سيحاسب على ما عمل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزَّلزلة:٧ ، ٨] ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] المشكلة في العلمانيين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر كيف يتحملون مظالم الحياة وابتلاءاتها ؟!

إن كل حاكم مسلم ظالم سوف يحاسبه الله تعالى على ظلمه مرتين : مرة على المظالم التي ارتكبها ، ومرة على أنه أساء إلى الإسلام وأشمت أعداءه في المسلمين .

أما الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية فإنها لم تقع لأسباب دينية إنما لأسباب سياسية ونَكِل أمر من تسبب فيها وشارك جميعاً لله تعالى ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزُّمر:٤٦] وعندنا في الإسلام لا عصمة إلا للنبي ﷺ وما عداه فيؤخذ منه ويرد عليه ورأي الناس في أنفسهم غير حكم الله تعالى عليهم فقانون الله تعالى العادل الذي نؤمن به ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣] وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ ؟ الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ " [صححه الألباني] .

***